دان شيفتان (*)

من "السور الواقي" وحتى "الرصاص المصبوب"

ثمة مغزى تاريخي للإنجازات الإستراتيجية التي حققتها إسرائيل، منذ حملة "السور الواقي"، مروراً بحرب لبنان الثانية (على الرغم من تفويت فرصتها) وتدمير المفاعل النووي وعمليات التصفية في سورية، وانتهاء بعملية "الرصاص المصبوب" في غزة. إن هذه الانجازات تبرهن بوضوح على أنه يمكن إيجاد جواب إستراتيجي، منظوماتي ومتراكم لسمات وخصائص الحرب العربية ضد إسرائيل، حتى وإن لم يتوفر دائماً جواب عملاني حيال كل وسيلة من الوسائل المستخدمة في هذه الحرب.

وتتعدى أبعاد الأمر نطاق إسرائيل والشرق الأوسط، نظراً لأن هذه السمات والوسائل لا تخص العرب أو النزاع في منطقتنا فحسب. فهي تسم العناصر الراديكالية في المجتمعات السائدة في العالم الثالث، التي لا تكترث بمصير شعوبها ومستقبل أبنائها وتحتقر القيم الإنسانية للمجتمعات المنفتحة وترى فيها ضعفا، وفي الوقت ذاته تُفاجأ مراراً وتكراراً حينما تكتشف فيها تصميماً وإرادة محبة للحياة.

شكل الحرب والتحدي أمام إسرائيل

تقر العناصر الراديكالية في العالم العربي، منذ السبعينيات، بضعفها في سائر مجالات وميادين المواجهة التقليدية مع إسرائيل، وتعتقد أن في إمكانها تجاوز ضعفها البنيوي عن طريق نقل الحرب إلى الجبهة المدنية. فهي تعي حساسية ومواطن ضعف العمق المدني في دولة عصرية وديمقراطية وتعي كذلك إحجام المجتمعات المتحضرة عن المس بالمدنيين لدى العدو حتى في زمن الحرب. وبما أنها تعي تماماً الفرص الكامنة في تلك الحساسية وذلك الإحجام لدى

* أستاذ العلوم السياسية وباحث زميل كبير في "مركز دراسات الأمن القومي" في جامعة حيفا.

إن التحدي الذي تواجهه إسرائيل إزاء شكل الحرب الجديدة هو تحد مركب ومتعدد الوجوه. فهي مضطرة إلى مواجهة هذا النموذج الراديكالي وإلى أن تفرض على التيار المركزي في الرأي العام العربي الإقرار بأن كل مكونات هذا النموذج مغلوطة: فالعرب لم يكتشفوا السلاح النهائي الذي يجعل إسرائيل عاجزة؛ إسرائيل لم تفقد شرعيتها في نظر الجهات المقررة حقاً؛ المجتمع الإسرائيلي ليس مجتمعاً منهاراً بل على العكس يظهر مناعة مدهشة.

الذين لا يعانون من أي تخلف قيمي، فإنها تسعى إلى نقل الحرب إلى جبهة السكان المدنيين لدى الجانبين: زرع القتل والرعب في العمق المدني (الجبهة الداخلية) في إسرائيل، وفي الوقت ذاته جر الجيش الإسرائيلي إلى ضرب السكان المدنيين العرب الذين تعمل تلك العناصر بينهم.

في السنوات الأخيرة راود الأمل العناصر الراديكالية في العالم العربي بأنه تم العثور أخيراً على الإستراتيجيا النهائية لسحق إسرائيل. فالعرب قادرون على ضرب "البطن المدنية الرخوة" لليهود، وأن ردود فعل إسرائيل لا تستطيع، رغم تفوقها العسكري، وقف أو درء هذا الخطر. هذا الأمل نما وتطور منذ التسعينيات في موازاة تطور وتوفر السلاح الباليستي والصاروخي الذي تمكن مميزاته من توجيه ضربات مكثفة وموجعة إلى التجمعات السكانية اليهودية في إسرائيل. ميزة هذا السلاح تكمن في بساطته ورخص تكلفته والمتطلبات الدنيا والسهلة لإطلاقه، إضافة إلى الكميات الضخمة التي يمكن التزود بها منه، ومدى هذه الصواريخ الآخذ في الازدياد. كل هذا يجعل من المستحيل تقريبا من ناحية عملية إرغام مطلقي هذا النوع من الصواريخ على القبول بوقف لإطلاق النار حتى بشروط مثالية، دون احتلال كامل المنطقة لفترة زمنية طويلة.

في ظل مثل هذه المعادلة فإن الرد العسكري ليس فقط لا يغدو ناجعاً، بل إن أولئك الراديكاليين يفترضون أن الرد ذاته سيضر بإسرائيل بدرجة لا تقل كثيراً عن الأذى والضرر الذي يلحق بمواطنيها، ذلك لأن مثل هذا الرد من شأنه، في نظر الكثيرين، أن يجرد اليهود من شرعية نضالهم بل وأن يقوض شرعية وجودهم في حد ذاته. ويكفي الراديكاليين العرب أن يوجهوا ضربات إلى مدنيين يهود من وسط تجمعات سكانية عربية مكتظة حتى يضطر اليهود إلى قتل أطفال عرب في محاولة (عديمة الفرصة أصلا) لوقف إطلاق النار والصواريخ. إن الضمانة الكامنة في هذه الإستراتيجيا لم تلهب حماس أطراف "محور الشر" وحسب، وإنما أيضاً الرأي العام والنخب الراديكالية في العالم العربي من محيطه إلى خليجه.

أخذت فضائية "الجزيرة" على عاتقها التعبير عن هذه الثقافة السياسية البغيضة بشكل سافر وترويجها في أوساط الجماهير العربية وإيصال مكوناتها إلى كل بيت في العالم العربي، سواء جوانب البطولة والانتصار المزعومين للعناصر الراديكالية، أو "حقيقة" عجز إسرائيل وانهيار المناعة القومية لشعبها، بالإضافة أيضا إلى صور الأطفال العرب الذين تمزقت أجسادهم أشلاء ومظاهرات التضامن في أوروبا وسائر أنحاء العالم.

إن التحدي الذي تواجهه إسرائيل إزاء شكل الحرب الجديدة هو تحد مركب ومتعدد الوجوه. فهي مضطرة إلى مواجهة هذا النموذج الراديكالي وإلى أن تفرض على التيار المركزي في الرأي العام العربي الإقرار بأن كل مكونات هذا النموذج مغلوطة: فالعرب لم يكتشفوا السلاح النهائي الذي يجعل إسرائيل عاجزة؛ إسرائيل لم تفقد شرعيتها في نظر الجهات المقررة حقاً؛ المجتمع الإسرائيلي ليس مجتمعاً منهاراً بل على العكس يظهر مناعة مدهشة.

إن هذا الإقرار أو الوعي يمكن فرضه بالأساس بوسائل القوة: البرهنة بشكل قاطع على أن إسرائيل قادرة على الصمود لزمن طويل في مواجهة تحدي الصواريخ حتى في تجلياته المتطورة وأن الجهات الراديكالية العربية التي تهاجمها ضعيفة وعاجزة عن تحمل التكلفة المتزايدة للرد (العسكري) الإسرائيلي المتصاعد.

لعل المسألة الأكثر أهمية في نقاشنا هذا هي الاتجاه الذي أخذت ملامحه ترتسم منذ قرابة العقد، بداية في "حرب الإرهاب" (الانتفاضة الثانية) الفلسطينية في خريف العام ٢٠٠٠، ثم في حملة "السور الواقي" في ربيع ٢٠٠٢، مروراً بحرب لبنان الثانية في صيف العام ٢٠٠٦، وتدمير المفاعل وعمليات التصفية.. المنسوبة إلى إسرائيل في سورية خلال عامي ٢٠٠٧– ٢٠٠٨، وانتهاء بالمحك الأخير المتمثل في حملة "الرصاص المصبوب" في قطاع غزة.

تفعيل القوة المفرطة في غزة.

اختبارات إسرائيل... من "السور الواقي" وحتى بداية المواجهة في غزة

تعتبر النتيجة العملانية، الإستراتيجية والسياسية المتراكمة لكل هذه العمليات، نتيجة ذات مغزى ومدلول تاريخيين نظراً لأنها تقوض فرضيات أساس، مضرة وغير راسخة أو مثبتة، ضربت أطنابها في الغرب طوال العقود الأخيرة، وصورت إرهاب مجتمعات العالم الثالث ضد المجتمعات المنفتحة كتهديد لا حل له. وقام أنصار هذه النظرية الانهزامية، بمساعدة أقلام صحافية مغمورة، بترويج الأسطورة التآمرية القائلة إن المجتمعات الديمقراطية لا تملك، ولا يمكنها أن تملك، حلا يستند إلى القوة لمشكلة الإرهاب. هذا الإدعاء أو الطرح استهدف دفع الديمقراطيات إلى التركيز على "الجذور الاجتماعية والسياسية للإرهاب" عوضاً عن محاربة مظاهره وتجلياته، بمعنى تنمية إحساس بالذنب بشأن مسؤولية هذه المجتمعات الديمقراطية عن الممارسات والأفعال الغاشمة للراديكاليين وضرورة التباحث معهم حول "حل سياسي" جوهره الرضوخ لإملاءاتهم. حتى عندما رفض الإرهابيون مجرد التظاهر بموافقتهم على التخلي عن أهدافهم الراديكالية، أدعى أنصارهم الضالون في وسائل الإعلام والسياسة والأكاديميا أن هؤلاء (الإرهابيون) أناس براغماتيون "في قرارة أنفسهم" وأنهم "يدركون جيداً" أن عليهم الاكتفاء بأهداف محدودة. أما الحجة الحاسمة التي يتذرع بها هؤلاء المؤيدون والأنصار فتتلخص في مقولة "لا حل عسكريا" ضد المتعصبين المستعدين للتضحية بأنفسهم، خاصة إذا كان شعبهم يؤيد ويساند أعمالهم لأنه "ليس لديه ما يخسره".

"السور الواقي"

في حملة "السور الواقي" أثبتت إسرائيل أنه يمكن، حتى في الظروف المثلى للإرهابيين، إيجاد جواب مرضٍ (وليس "حلا") بوسائل القوة العسكرية، دون حاجة لتشجيع الإرهاب عن طريق إنجازات ومكاسب ولو كانت جزئية. وفي الواقع فقد كانت ظروف الإرهاب الفلسطيني مثالية: من حيث أن المجتمع اليهودي كان حساسا جدا، وأن الإرهابيين كانوا يعرفون كل بيت وشارع في إسرائيل وبالتالي كانوا قادرين على الوصول إليه بسرعة وسهولة؛ وأن المجتمع الفلسطيني ساند الإرهابيين ورأى فيهم رسله المنتخبين، وفوق ذلك تمتع الفلسطينيون بمساعدات سخية بمليارات الدولارات تدفقت من سائر دول العالم، وباهتمام وتعاطف منقطعي النظير من جانب وسائل الإعلام العالمية والمجتمع الدولي. بمساعدة كل ذلك صاغ الإرهابيون الفلسطينيون وسيلة الإرهاب النهائية في إطار نموذج "الشهادة" الذي ضمن لهم مكاناً في الجنة ولأسرهم وعوائلهم مكانة اجتماعية محترمة. هذا الإرهاب سحقته إسرائيل عبر توليفة تكونت من حملة "السور الواقي" وجدار الفصل الأمني والتواجد الدائم للجيش الإسرائيلي داخل تجمعات السكان الفلسطينيين. جميع هذه المكونات اعتمدت على استخبارات متطورة وفرها جهاز الأمن العام "الشاباك" وشعبة الاستخبارات العسكرية ("أمان"). ولا يدور الحديث هنا بطبيعة الحال على "حل مرة واحدة وإلى الأبد" لمشكلة تهديد الإرهاب الفلسطيني. فهذا الإرهاب ليس له حقيقة أي "حل عسكري"، ولكن بما أنه لا يوجد له أيضاً في هذه المرحلة التاريخية، "حل سياسي" فإنه ليس هناك أي معنى لهذه الحجة المبتذلة بالنسبة لمن يهتم بجوهر الأمور وليس بشعارات لها وقع جيد في وسائل الإعلام.

مع ذلك فقد برهنت تحركات إسرائيل ونشاطاتها الأمنية منذ العام ٢٠٠٢ على توفر جواب عسكري مرض لإرهاب الانتحاريين، يؤدي إلى خفضه من مستوى غير محتمل إلى مستوى متدن جداً، يمكن للمجتمع الإسرائيلي أن يتعايش معه لأجيال وعقود مقبلة، وأن يعمل في الوقت ذاته على دفع وتحسين رفاهيته ونوعية حياته وسط التغاضي تقريبا عن وجود هذا الإرهاب. وفي الواقع فإن من المرجح أن يبرر الفلسطينيون في المستقبل أيضاً سمعتهم الإبداعية في مجال العنف وأن يطرحوا تحديا جديداً (أمام إسرائيل)، ومع ذلك سيكون في الإمكان العثور على جواب عسكري لمظاهر العنف الجديدة، مثلما حصل في جميع المرات السابقة خلال الأجيال الثلاثة الأخيرة.

قدمت حرب لبنان الثانية هي أيضاً مساهمة مهمة في مواجهة العناصر الراديكالية، على الرغم من الثغرات والعيوب الخطيرة التي ظهرت في مجال الأداء السياسي والعسكري والتي أدت إلى إضاعة الفرص الإستراتيجية التي كان يمكن تطويرها خلال هذه الحرب. فالانجاز الاستخباراتي والجوي في بداية الحرب والدمار التام في الضاحية الجنوبية لبيروت، إضافة إلى الجهد المكثف الذي قام به الجيش الإسرائيلي لتهيئة القوات للمواجهة المقبلة، أقنعا "حزب الله" ومن يقف وراءه في طهران ودمشق بعدم المجازفة مجدداً بخوض مواجهة ضد إسرائيل والتي يمكن أن تجر دماراً وهلاكاً على لبنان وحتى على سورية.

حرب لبنان الثانية

بعد أن تَأَمَّن الانجاز الحاسم لعملية "السور الواقي"، فرضت استفزازات "حزب الله" على إسرائيل شن حرب تمحورت حول نوع آخر من الإرهاب، وهو الإرهاب الصاروخي الذي أشرنا إليه آنفاً. ويهدف هذا الإرهاب في جوهره إلى ردع إسرائيل عن تصعيد محاربتها للنضال الأنصاري الذي جرى في لبنان بوتيرة غير محتملة بالنسبة لإسرائيل، عن طريق تهديد تجمعات سكانية إسرائيلية بسلاح صاروخي بسيط ورخيص لا يمكن منع إطلاقه..

قدمت حرب لبنان الثانية هي أيضاً مساهمة مهمة في مواجهة العناصر الراديكالية، على الرغم من الثغرات والعيوب الخطيرة التي ظهرت في مجال الأداء السياسي والعسكري والتي أدت إلى إضاعة الفرص الإستراتيجية التي كان يمكن تطويرها خلال هذه الحرب. فالانجاز الاستخباراتي والجوي في بداية الحرب والدمار التام في الضاحية الجنوبية لبيروت، إضافة إلى الجهد المكثف الذي قام به الجيش الإسرائيلي لتهيئة القوات للمواجهة المقبلة، أقنعا "حزب الله" ومن يقف وراءه في طهران ودمشق بعدم المجازفة مجدداً بخوض مواجهة ضد إسرائيل والتي يمكن أن تجر دماراً وهلاكاً على لبنان وحتى على سورية. لقد أدركت هذه الجهات الراديكالية تماماً أن إسرائيل تمتلك الجرأة والعزم والقدرة على إلحاق أشد الضرر بمكتسباتها ومصالحها الحساسة وأن العبرة الإسرائيلية المستخلصة من تلك الحرب (حرب صيف ٢٠٠٦) هي أن تلك المكتسبات والمصالح لم تتلق ضربة كافية. وحين شاهدت تلك الجهات الراديكالية ذاتها ما تقوم به إسرائيل في غزة (من قصف وتدمير .. إلخ) امتنعت حتى من إبداء مظاهر التضامن مع حلفائها الغزيين في المحور الراديكالي.

تدمير المفاعل و"التصفيات" في سورية

أضافت عملية تدمير المفاعل النووي وعمليات الإحباط (الاغتيالات) المنسوبة إلى إسرائيل في سورية مدماكاً مهماً لقدرة الردع الإسرائيلية الإستراتيجية. لقد أثبتت إسرائيل أنه حين تنشأ طاقة عنيفة تهدد مصالح حيوية لها، فإنها لا تتورع عن المجازفة، حتى ولو بثمن نشوب حرب والتعرض لانتقادات دولية، باللجوء إلى وسائل وطرق لا يمكن لأية دولة أخرى من طرازها أن تفكر بها. هنا أيضاً لا يدور الحديث على "حل مرة واحدة وإلى الأبد"، ولكن سبق أن ثبت في الحالة العراقية (ضرب إسرائيل للمفاعل النووي العراقي العام ١٩٨١) أنه حتى التأجيل المؤقت للتسلح النووي يمكن أن يتيح، في ظروف لا يمكن التكهن بها سلفا، اجتثاث الخطر من جذوره وعلى مدى طويل جداً. وقد برهنت السمات المميزة لعمليات التصفية والإحباط أن إسرائيل مستعدة في حالات خطيرة بشكل خاص لركوب المخاطر من أجل تشويش ودرء تهديدات وهي في مهدها وتبيان حدود المحتمل. في جميع هذه الحالات (عمليات "الإحباط" في سورية) لم يقتصر الأمر على قدرة تنفيذية فائقة وحسب، وإنما أيضاً معلومات استخبارية مدهشة في نوعيتها ودقتها، تضع أعداء إسرائيل في حالة قلق شديدة بشأن عمق التغلغل إلى منظوماتهم الحساسة وتزعزع أمنهم وثقتهم بأنفسهم.

اختبار "الرصاص المصبوب"

تعتبر حملة "الرصاص المصبوب" مكملة لسلسلة تلك العمليات بمعان كثيرة. في غزة اضطرت إسرائيل إلى مواجهة التجليات الأبرز للأسطورة التي طورها الإرهابيون العرب ومسوغوهم في اليسار الراديكالي ووسائل الإعلام، بشأن حصانة الإرهاب أمام ردود فعل المجتمعات الديمقراطية. في غزة تجذرت حركة إرهابية

من وجهة نظر العناصر الراديكالية في العالم العربي، فإن الاستفزازات في لبنان والضفة الغربية وقطاع غزة وسورية ليست سوى وسيلة أو وسائل تهدف إلى تحقيق غاية إستراتيجية أوسع بكثير: فهي تسعى لإثبات أن إسرائيل والولايات المتحدة عاجزتان حيال المعادلة الجديدة التي تزاوج بين "مقاومة" الفلسطينيين و"حزب الله" وبين تحول إيران إلى دولة نووية. ومن المفترض أن تهب النخب والرأي العام في المنطقة بأسرها لتعرض على الأنظمة، التي خانت ثقة شعوبها، مواءمة سياستها لترضخ إلى املاءات المحور الراديكالي أو أن تخاطر بسقوطها.

عنيدة لا تكترث لحياة ورفاهية السكان الفلسطينيين الذين انتخبوها بإرادتهم الحرة، والتي تقتات من أيديولوجية متعصبة ولا سامية، وتتسلح بصبر لا حدود له لتحقيق أهدافها. هذه الحركة تحظى بتأييد وتعاطف الملايين في العالمين العربي والإسلامي ودعم عسكري واقتصادي من قوة إقليمية تستخدمها كذراع حربية. سمات الإرهاب المكرسة لتوفير الحصانة لهذه الحركة تستند إلى سلاح صاروخي، مهرب أو مصنع محليا، يتم إطلاقه وتوجيهه نحو العمق المدني الإسرائيلي من وسط تجمعات سكانية فلسطينية. هذا التهديد الصاروخي عمل بتضافر مع شبكة دفاعية لمواجهة عملية برية إسرائيلية، مسلحة بسلاح مضاد للدبابات وكميات ضخمة من المتفجرات، وتعمل في قلب تجمعات سكانية تعد من الأعلى كثافة على مستوى العالم، أعدت المباني والبيوت فيها لحرب طويلة وحفرت تحتها مدينة أنفاق مخصصة للهرب والقتال وعمليات الاختطاف.

ولعل الشيء الذي لا يقل تهديداً عن الاستعدادات والتحضيرات العملية هو الأسطورة القائلة إن هذه المنظومة (التجهيزات) تهدف إلى جعل إسرائيل عاجزة عن مواجهة "المقاومة" الفلسطينية لأنه لا يمكن وقف إطلاق الصواريخ ولا يمكن حماية السكان اليهود كما لا يمكن القيام بعملية برية في غزة بسبب تفخيخ المدينة والكثافة السكانية فيها. وبذلك من المفترض أن يشكل السلاح الحاسم للإرهاب ضرورة إسرائيلية للمس بالمدنيين الفلسطينيين، وخاصة الأطفال، أثناء المواجهة مع "الإرهابيين" في غزة، وبالتالي كان من المفروض بهذا الأمر (أي المس بالمدنيين) أن يولد مظاهر تضامن واسعة في سائر أنحاء العالمين العربي والإسلامي، تفرض على الحكومات الانضمام للحرب. كذلك كان من المفترض أن تثير معاناة المدنيين الفلسطينيين "ثورة" أخلاقية في المجتمع الإسرائيلي، وحالة ذعر تشل صانعي القرارات في الدولة اليهودية، وضغوطا أميركية لوقف العملية العسكرية الإسرائيلية فوراً إضافة إلى نزع الشرعية عن إسرائيل في أوروبا وحملة دولية غير مسبوقة لعزل الدولة المارقة التي ارتكبت "مذبحة غزة".

من وجهة نظر العناصر الراديكالية في العالم العربي، فإن الاستفزازات في لبنان والضفة الغربية وقطاع غزة وسورية ليست سوى وسيلة أو وسائل تهدف إلى تحقيق غاية إستراتيجية أوسع بكثير: فهي تسعى لإثبات أن إسرائيل والولايات المتحدة عاجزتان حيال المعادلة الجديدة التي تزاوج بين "مقاومة" الفلسطينيين و"حزب الله" وبين تحول إيران إلى دولة نووية. ومن المفترض أن تهب النخب والرأي العام في المنطقة بأسرها لتعرض على الأنظمة، التي خانت ثقة شعوبها، مواءمة سياستها لترضخ إلى املاءات المحور الراديكالي أو أن تخاطر بسقوطها. إن الاعتقاد بإمكانية الاستجابة بهذه الطريقة لتطلعات وآمال العرب، لم يكن قوياً في أي وقت مضى مثلما كان أثناء نشوة الوهم بـ "انتصار" حزب الله في حرب لبنان الثانية. فخيبة الأمل والإحباط في إسرائيل من نتائج الحرب و"احتفالات الفشل" في وسائل الإعلام الإسرائيلية وصفقات تبادل الأسرى البائسة كل ذلك أغرى حتى نظام الأسد في دمشق ودفعه إلى بناء جزء من إستراتيجيته على نظرية "المقاومة". هذه النشوة أضيفت إلى إفلاس الولايات المتحدة والدول القليلة المؤيدة لها في الساحة العالمية في تصديها لبرنامج إيران النووي، مما وضع الأنظمة المعتدلة في العالم العربي في خندق دفاعي عميق.

عملية "الرصاص المصبوب"... إجمال أولي

على الرغم من أن الحرب في غزة لم تنته بعد، وأن نتائجها ما زالت في طور التبلور، فقد بات من الواضح أن مجرى هذه المواجهة قدم مساهمة حاسمة لناحية تغيير الاتجاه. ففي هذه المواجهة منيت أسطورة "المقاومة"، التي وضعت على المحك، بفشل ذريع، وليس هذا وحسب، بل وطرحت المواجهة ذاتها (في غزة) المعارك والحروب

السابقة التي وقعت في السنوات الأخيرة، في ضوء مختلف يضعها كلها في سياق من الفشل المتواصل لمعسكر الراديكاليين وخيبة توقعاتهم وآمالهم. ففي "الحرب الأخيرة" في غزة انهارت تقريبا كل الفرضيات الأساس الإستراتيجية لـ "المقاومة". ويجدر بنا أن نتفحص نتائج هذه الإستراتيجيا في كل واحد من مجالاتها السياسية المهمة.

مناعة المجتمع الإسرائيلي

في الحقيقة برهن السلاح الصاروخي على قدرته على الوصول إلى مدن إسرائيلية وعلى الصعوبات المستعصية في منع إطلاقه نهائيا، غير أنه ثبت أن تأثيره على المجتمع الإسرائيلي كان تأثيراً معاكساً لتوقعات مطلقيه.

فمنذ اللحظة التي خرجت فيها إسرائيل من أجل خوض صراع مركز ضد هذا السلاح، برهنت الجبهة الداخلية الإسرائيلية على مناعة صلبة أكثر من أي وقت مضى وأنها مستعدة لتحمل الضرر والخسائر وإعطاء الحكومة حرية عمل ووقت غير محدود كونها لا تتوقع أو تنتظر "حلا مرة واحدة وإلى الأبد" للمشكلة وبالتالي لن تحتج أو تثور حين يتضح أن مثل هذا الحل غير متوفر. هذه الأمور تجلت أيضاً وإن بدرجة أقل في حرب لبنان الثانية، لكن هذا الموقف الناضج والصبور (للجمهور الإسرائيلي في الجبهة الداخلية) طمس جراء الأداء القاصر لمنظومات وأجهزة الجبهة الداخلية.

انعكاسات المس بالسكان الفلسطينيين

نجحت حركة "حماس" في واقع الأمر في إجبار إسرائيل على المس بشكل واسع بالسكان الفلسطينيين الذين عملت الحركة ووجدت مأوى بين صفوفهم، لكنها لم تنجح في استغلال هذا الأمر وتحويله إلى ضرر عميق لمكانة إسرائيل. أما عملية نزع شرعية إسرائيل فقد انحصر جلها في أوساط ذات المحافل الأيديولوجية اللاسامية واليسارية المعادية أصلا لإسرائيل واليهود. كذلك اقتصر جل الضرر الإعلامي على نفس المحافل والأوساط التي ترفض بصورة تلقائية تقريبا كل ما يندرج في إطار الدفاع الفاعل عن النفس.

في إسرائيل لم يثر الأمر دعوة لوقف العملية العسكرية في غزة سوى في صفوف محافل ضيقة جداً ومتوقعة في هامش الساحة العامة.

في الولايات المتحدة لم تسجل أية صدمة في الإدارة الحاكمة أو في

المدنيون الفلسطينيون: فاتورة باهظة.

التيار المركزي للمجتمع الأميركي. حتى إدارة باراك أوباما الحديثة العهد وفرت نوعاً من الغطاء الشرعي وحرية عمل واسعة لما تقوم به إسرائيل في قطاع غزة.

في أوروبا أثار في الواقع المس الواسع بالمدنيين الفلسطينيين صدمة مفهومة في أوساط الجمهور ونظمت مظاهرات احتجاج حاشدة كما وجهت انتقادات شديدة (لإسرائيل) في وسائل الإعلام الأوروبية، غير أن المظاهر المعادية لإسرائيل ظهرت بالأساس في أوساط المسلمين ومحافل اليسار المعادية أصلًا. أما الحكومات (الأوروبية) فتصرفت بشكل مغاير تماماً: ففي لفتة نادرة قام معظم زعماء وقادة الدول المهمة في أوروبا بزيارة إسرائيل، ولم يأت هؤلاء للتعبير عن احتجاج وإنما للإعراب عن تفهم وتأييد مصحوبين بالأسف (الذي تتشاطر فيه إسرائيل أيضاً) للمس بالمدنيين.

وعلى ما يبدو فقد سلم كثيرون، وبشكل يزيد عن أي وقت مضى، بحقيقة أن هذه هي طبيعة الحرب ضد الإرهاب، وأنه لا يجوز السماح لمثل هذا الإرهاب أن يضمن لنفسه حصانة من خلف ظهر المدنيين.

ومن ناحية عملية فإن جميع الأطراف المقررة أجازت لإسرائيل أن

لقد تخوفت سورية وامتنعت من الرد حتى على سلسلة من الانتهاكات السافرة والمهينة لسيادتها، وذلك لأن هذه أكدت للرئيس الأسد أن إسرائيل مستعدة للمجازفة، حتى ولو بنشوب حرب، من أجل إحباط تحولها لدولة نووية وضرب علاقاتها الوطيدة مع عناصر الإرهاب. فقد اعتقد (الرئيس) الأسد أن أي رد عسكري مباشر على "أحداث" غزة سينتهي بهزيمة مذلة. وأدرك زعيم "حزب الله" حسن نصر الله إن إطلاق صواريخه على إسرائيل سيلحق ضرراً شديداً بمساعيه للسيطرة على لبنان بوسائل وطرق سياسية مفترضاً أن إسرائيل ستكون مقيدة أقل بكثير في ردها مما كانت عليه الحال في حرب لبنان الثانية

تفعل في نهاية العقد ما كان غير متصور في بدايته (عملية "السور الواقي") ولا حتى في منتصفه (حرب لبنان الثانية).

تكلفة اجتياح معاقل الإرهاب المأهولة بالسكان

من بين الأساطير الخرافية، التي بان زيفها مجدداً في الحرب ضد الإرهاب الفلسطيني، هناك أيضاً الأسطورة بشأن التكلفة غير المحتملة لاجتياح معاقله داخل التجمعات السكانية المدنية المكتظة. ووفقاً لهذه الأساطير، التي روجتها عناصر الإرهاب ومؤيدوها في الغرب، فإن مثل هذا التوغل أو الاقتحام لمنطقة حضرية مكتظة، يقاتل فيها إرهابيون عنيدون ينشدون "الشهادة"، سيوقع مئات القتلى في صفوف القوة المقتحمة. هذه الأسطورة سبق أن تحطمت عند اقتحام مخيمات اللاجئين الفلسطينيين أثناء عملية "السور الواقي"، وبان زيفها مجدداً أثناء عملية "الرصاص المصبوب". في الضفة الغربية استطاع مروجوها الادعاء أن مخيمات اللاجئين لم تعد كما يجب لمواجهة الاجتياح لكن في غزة عمل الجيش الإسرائيلي في إحدى المناطق الأكثر اكتظاظا في العالم، من دون أن يتكبد أي خسائر تقريبا، على الرغم من كل شبكة الألغام والأنفاق والتفخيخ التي أعدت منذ سنوات بإرشاد إيراني وبوحي من نموذج "حزب الله". حتى في هذه الظروف آثر رجال "حماس" في معظم الحالات الهروب من المواجهة، وفي الحالات التي اختاروا فيها القتال هزموا وقتلوا. لا ينبغي الاستنتاج من نجاح الجيش الإسرائيلي في غزة أن حربا في وسط كهذا ليست صعبة أو أن التجمعات السكانية الفلسطينية لن تكون مستعدة بشكل أفضل للحرب المقبلة. غير أن الحديث لا يدور على عائق منيع يستحيل تجاوزه أو تخطيه، وأنه جدير بأن تنسج حوله أساطير بطولية تستهدف تشجيع فصائل الإرهاب أو تلك المحافل في وسائل الإعلام والأكاديميا أو الساحة السياسية، المتحمسة للرضوخ والاستسلام لعناصر الإرهاب.

فشل في الساحتين العربية والإسلامية

إن الفشل الأكبر لـ "المقاومة" كان في الساحتين العربية والإسلامية. صحيح أن المس بـ (المدنيين) الفلسطينيين أخرج الملايين إلى الشوارع وانحفر عميقاً في وعي عشرات الملايين من مشاهدي محطة "الجزيرة" التي تجندت في المعركة، إلا أن جميع هؤلاء اكتفوا بالتعاطف الوجداني ولم يترجموا "ثورتهم العاطفية" إلى عمل سياسي فعال. في هذه المرة أدركت الأنظمة العربية وأولها مصر، جسامة الخطر الذي يتربص بها جراء هذه النظرية الراديكالية وعملت على عزل الراديكاليين. في قمة الدوحة نجح المحور الراديكالي- إيران، سورية، حزب الله وحماس- في أن يضم إليه فقط أمير (حاكم) قطر ورئيس فنزويلا، في حين عقد خصومهم المعتدلون محادثاتهم المقررة في الكويت وشرم الشيخ بحضور العالم العربي كله وبمشاركة لافتة لممثلين أميركيين وأوروبيين. وفي الوقت الذي كانت فيه غزة تدك بالقنابل على مرأى وسمع العالم لم يتجند حتى الشركاء المقربون لـ "حماس" من أجل القيام بعمل فعال لنجدة الحركة، إذ اكتفت إيران وسورية بالإعراب عن الصدمة وبتصريحات تأييد فارغة، ولم يجرؤ "حزب الله" على استخدام ترسانته الصاروخية الضخمة، في حين انقسم الفلسطينيون في الضفة الغربية بين من وقفوا موقف "المتشفي" إزاء ما يتعرض له أشقاؤهم في غزة، وبين من وقفوا عاجزين حتى عن إبداء التضامن، أما العرب من مواطني إسرائيل فآثروا الاحتجاج بهدوء.

كل هذه الأمور أثبتت فيما بعد نجاح سياسة القوة التي انتهجتها إسرائيل في العقد الأخير. لقد تخوفت سورية وامتنعت من الرد

وبما أن هذه الثقافة السياسية غير موشكة على الزوال في المستقبل القريب، فإنه يتعين على إسرائيل الافتراض بأن إنجازاتها في كبح جماح الراديكاليين تتطلب صيانة دائمة بوسائل عسكرية وسياسية. فقمع "الإرهاب" في حملة "السور الواقي" لم ينجح في خفض الهجمات الإرهابية بصورة دراماتيكية سوى بفضل سنوات عديدة من تعزيز وصيانة وسائل القوة العسكرية؛ كذلك فإن إنجازات الردع سالفة الذكر لن تقوى على الصمود إلا إذا أظهرت إسرائيل من حين إلى آخر، في مواجهة تجدد الإبداع المتوقع للإرهاب الفلسطيني والعربي، أنها قادرة على امتصاص عنفه وإخماده بتكلفة غير محتملة لمُدَبِّريه.

حتى على سلسلة من الانتهاكات السافرة والمهينة لسيادتها، وذلك لأن هذه أكدت للرئيس الأسد أن إسرائيل مستعدة للمجازفة، حتى ولو بنشوب حرب، من أجل إحباط تحولها لدولة نووية وضرب علاقاتها الوطيدة مع عناصر الإرهاب. فقد اعتقد (الرئيس) الأسد أن أي رد عسكري مباشر على "أحداث" غزة سينتهي بهزيمة مذلة. وأدرك زعيم "حزب الله" حسن نصر الله إن إطلاق صواريخه على إسرائيل سيلحق ضرراً شديداً بمساعيه للسيطرة على لبنان بوسائل وطرق سياسية مفترضاً أن إسرائيل ستكون مقيدة أقل بكثير في ردها مما كانت عليه الحال في حرب لبنان الثانية، لأنه لم تعد هناك في لبنان حكومة معادية لـ "حزب الله" كما في أيام حكومة السنيورة في ٢٠٠٦، كذلك أدرك نصر الله أن باستطاعة إسرائيل الرد على استفزاز محدود بتصعيد غير متوقع.

موقف مصر

إن المسألة الأخطر من ناحية "حماس" هي تجند مصر لتضييق الخناق على الحركة. ومن ناحية عملية فإن مصر هي التي أتاحت، منذ "الانفصال" الإسرائيلي، تجذر حركة "حماس" في قطاع غزة وتسلحها الصاروخي الواسع. فقد امتنعت من التصدي بصورة جادة لهذه العملية على الرغم من أنها كانت معنية بتوطيد مكانة السلطة الفلسطينية في القطاع وعلى الرغم من التهديد الكامن في إمكانية قيام جهة راديكالية مدعومة من إيران بتقوية خصوم نظام مبارك المثلين بالإخوان المسلمين داخل مصر ذاتها. وقد امتنع النظام المصري من القيام بذلك تفاديا لدخوله في مواجهة مع الجمهور الفلسطيني الراديكالي في قطاع غزة، وحتى يتمكن من لعب دور الراعي للإطار المشترك (المصالحة) بين "حماس" و"فتح" وزج إسرائيل في صراع استنزافي يكشف ضعفها وعجزها ويجعلها متعلقة أيضا بالنوايا الحسنة لمصر. وكان الرئيس مبارك يأمل بذلك في أن يحظى بتفهم وتقدير داخل مصر ذاتها ولدى الرأي العام العربي وأن يبني لنفسه أيضاً مكانة في إسرائيل والولايات المتحدة باعتباره الرجل الذي "لا يمكن عمل شيء بدونه". وقد افترض أن بإمكانه المناورة بين "حماس" والسلطة الفلسطينية وإسرائيل والولايات وأن يبقي في يده كل الخيارات.

في السنوات الأخيرة أدرك مبارك ووزير مخابراته (عمر سليمان)، بعد تجربة قاسية، أنه لا يمكن بناء صيغة كهذه مع حركة "حماس" تعمر لفترة طويلة نظراً لأن الدعم والتأثير الإيرانيين على قيادة الحركة في دمشق بمباركة من الرئيس الأسد وانعدام مسؤولية القيادة العسكرية للحركة في القطاع، يجعلان من الشراكة مع "حماس" غير واردة في الحسبان نهائيا. فمن خلال جملة من الممارسات والتصرفات بدءا بإفشال السياسة المصرية الرامية لإيجاد إطار مشترك مع السلطة الفلسطينية، مروراً بالتحرشات غير المسؤولة بإسرائيل وتوثيق العلاقات مع إيران، وانتهاء باتهام مصر بخيانة القضية العربية وتجويع الفلسطينيين خدمة لإسرائيل، فرضت قيادة "حماس" على مصر إجراء تغيير ملموس في سياستها، وأدرك نظام الرئيس مبارك للمرة الأولى أنه لم يعد يمتلك خيار المناورة بين الأطراف المختلفة وأن عليه "قصقصة جنحان" حركة "حماس" في غزة وإعادتها إلى حجمها الطبيعي.

وعلى الرغم من أن الحديث لا يدور بأي شكل عن تجند مصر لمنع عمليات تهريب الأسلحة أو لإسقاط سلطة "حماس" في القطاع، إلا أن هذا التغيير يعتبر ذا مغزى وأهمية. فمصر ليست آسفة نهائيا للضربة القاسية التي تلقتها "حماس" على يد إسرائيل. فالثمن السياسي لهذه الضربة دفعته مصر سلفاً وهي الآن تقطف ثمارها. وأغلب الظن أن مصر ستعمل على تقليص تهريب الأسلحة، إلى حد ما، ووضع مصاعب وعراقيل أمام علاقات قطاع غزة مع إيران.

وستضطر "حماس" إلى تليين مواقفها تجاه السلطة الفلسطينية والتسليم بترتيبات مقيدة في عمل المعابر. كما ستجد "حماس" نفسها مضطرة إذا ما أرادت التفكير باستئناف المواجهة الشاملة مع إسرائيل، إلى أخذ مصر في الحسبان والتي لن تهب لحمايتها بل وسترحب ضمنا بكبح جماح الحركة. من الصعب أن نرى في الظروف القائمة تحقيقا لمطلب "حماس" بفتح الحدود مع مصر.

ملاحظات تحذير

في نهاية هذا النقاش، الذي يركز على إنجازات إسرائيل في بلورة جواب مرض للمرحلة الراهنة من تحديات "المقاومة"، يجدر بنا إبداء ملاحظتي تحذير بشأن محدودية هذه الإنجازات:

الملاحظة الأولى تهدف إلى وضع الإنجازات المذكورة في السياق الأرحب لتحديات الأمن القومي. فالتحدي الرئيسي كان وما زال تحول إيران إلى دولة تملك قدرات نووية. إن المساعدات المكثفة التي تقدمها إيران إلى سورية و"حزب الله" و"حماس" تهدف إلى ردع إسرائيل والولايات المتحدة عن الدخول في مواجهة مباشرة مع إيران و/ أو تدمير قوة إسرائيل في مواجهة "الدرع الواقي" الخارجي لإيران في سورية ولبنان وغزة، على حساب الموارد المادية والسياسية اللازمة لمواجهة التهديد الحقيقي في طهران.

الأخبار السيئة هي أن هذه الإستراتيجيا نجحت في أن تفرض على إسرائيل حروبا صعبة وباهظة التكاليف مع أذرع طهران القتالية، بينما تمضي إيران ذاتها بسرعة في دفع تهديدها النووي قدماً. أما الأخبار الجيدة فهي أن ردع إسرائيل عن مواجهة الخطر النووي الإيراني، في ظل الخشية من مواجهة وكلاء طهران المذكورين، فَقَدَ جل نفاذه، حين اتضح للطرفين أن إسرائيل قادرة على مواجهتهما بتكلفة محتملة وجباية ثمن غير محتمل بالنسبة لهؤلاء الوكلاء أنفسهم. لقد كانت إسرائيل مضطرة أصلا لمواجهة تحدي "المقاومة" ذاته بمعزل عن ارتباطه بإيران، ومن ناحيتها (أي إسرائيل) حسنا أن هذا التحدي شطب من جدول الأعمال في المرحلة الحالية، قبل أن يصل التحدي الإيراني إلى ذروته الأشد حدة. فالاختبار الحاسم لإسرائيل يتمثل بطبيعة الحال في الموضوع الإيراني ذاته.

ملاحظة التحذير الثانية تتعلق بصمود الانجاز الإسرائيلي والردع المرتبط به. فالإنجاز هو بالضرورة مؤقت، نظراً لأنه لا يتعلق بحافز العناصر الراديكالية للمس بإسرائيل. فهذا الحافز عميق، راسخ ومتجذر في هوية تلك العناصر وبما يتعدى بكثير مطالبها السياسية والإقليمية. فهي تعرف هويتها من خلال نضالها وحربها ضد وجود دولة القومية اليهودية، وهي تبني على هذه الحرب مكانتها الإقليمية.

وبما أن هذه الثقافة السياسية غير موشكة على الزوال في المستقبل القريب، فإنه يتعين على إسرائيل الافتراض بأن إنجازاتها في كبح جماح الراديكاليين تتطلب صيانة دائمة بوسائل عسكرية وسياسية. فقمع "الإرهاب" في حملة "السور الواقي" لم ينجح في خفض الهجمات الإرهابية بصورة دراماتيكية سوى بفضل سنوات عديدة من تعزيز وصيانة وسائل القوة العسكرية؛ كذلك فإن إنجازات الردع سالفة الذكر لن تقوى على الصمود إلا إذا أظهرت إسرائيل من حين إلى آخر، في مواجهة تجدد الإبداع المتوقع للإرهاب الفلسطيني والعربي، أنها قادرة على امتصاص عنفه وإخماده بتكلفة غير محتملة لِمُدَبِّريه.

أما الصيانة السياسية فهي مطلوبة في العلاقات مع الولايات المتحدة وأوروبا والدول العربية ومع الفلسطينيين المستعدين للتوصل إلى حلول وسط.

إن هذه العملية لا تهدف فقط إلى تطوير وزيادة مساحة العمل العسكري ضد العناصر الراديكالية، وإنما بالأساس تقوية الحافز لدى الجهات الراغبة في الاستقرار والتطوير البناء للمنطقة وإقامة وتعميق الشراكة مع إسرائيل.

تلخيص

بعد أن ناقشنا بشكل مفصل هذه المسائل على حدة، يجدر بنا أن نعود إلى الإطار الشامل الذي أوردناه في مستهل هذا المقال.

لقد واجهت إسرائيل في العقد الأخير تحديا جديداً، له سمات اختيرت بعناية من اجل وضعها أمام تهديد يحيّد ويلغي تفوق قوتها العسكرية والاقتصادية والسياسية، في مواجهة العناصر الراديكالية في العالم العربي. وتكمن خصوصية هذا التحدي، كما أسلفنا، في مكوناته التي لا يتوفر لها جواب عملاني، والتي تتمثل في ترسانة كبيرة من الصواريخ البسيطة والرخيصة، والقادرة على ضرب تجمعات سكانية يهودية دون توفر إمكانية لمنع إطلاقها بثمن معقول؛ إضافة إلى نمط حرب تفرض على إسرائيل عمليا إلحاق ضرر خطير بالسكان المدنيين العرب حتى من أجل تحقيق نتائج جزئية ومخيبة للآمال. إن التحدي الذي وضع أمام إسرائيل هو

إيجاد جواب إستراتيجي لهذا التهديد التنفيذي.

على الرغم من انه لم يتم القضاء على هذا التهديد، وأن المواجهة الأخيرة لم تصل إلى تسوية أو تثبيت (لوقف إطلاق النار) مع الإدراك الأكيد لحتمية ظهور تهديدات عنيفة أخرى في المستقبل، إلا أنه يمكن المجازفة والقول إن إسرائيل وجدت لهذا التحدي جواباً مرضيا في المرحلة الحالية. فقد برهنت إسرائيل على أن في مقدورها فرض معادلة تقلص التهديدات إلى مستوى محتمل، مع احتفاظها بالوسائل وحرية العمل اللازمة من أجل مواجهة هذه التهديدات في الجولة الحتمية المقبلة ومن موقع مساومة أفضل.

هذا الجواب الإستراتيجي يظهر كإنجاز إستراتيجي متراكم. لقد حصلت إسرائيل على حرية عمل عسكرية أتاحت تحقيق أهدافها المحدودة في غزة، نظرا لأنها ردعت خلال العقد بأكمله بوسائل القوة العسكرية منظمة "حزب الله" والعناصر الراديكالية في الضفة الغربية (وكذلك سورية بطريقة مختلفة) عن الدخول معها في مواجهة أثناء العملية في الجنوب (الحرب على غزة). وحصلت (إسرائيل) على حرية عمل سياسية لأنها برهنت للولايات المتحدة، وحتى لأوروبا ومصر، أنها مستعدة لإجراء مباحثات جوهرية تتناول مواضيع حساسة يجد الجمهور الإسرائيلي صعوبة في تقبلها، وأنها مستعدة أيضاً لتحمل الكثير قبل أن ترد بالقوة.

إن النقطة الأساسية في الجواب الاستراتيجي تتمثل في التغيير العميق لمعادلة التكلفة/ الجدوى للإرهاب الذي تمارسه العناصر الراديكالية ضد إسرائيل. وقد أبرزت العملية العسكرية (في غزة) بصورة دراماتيكية عنصر التكلفة. فالفشل السياسي الذي منيت به "حماس" ومؤيدوها قلص بصورة حادة جداً عنصر الجدوى.

[المقال مترجم عن العبرية]